



المناسبة وأثرها في تحقيق الترابط النصي المفهومي عند الزمخشري في الكشاف

أ.د. سعدون أحمد علي المرسل : sadoona26@gmail.com

جامعة بابل / العراق

- الترقيم الدولي: 1969. ISSN 2335 - ترقيم الإلكتروني E.ISSN X 506_2602

المخلص

Abstract.

The Context and its impact on the realization of the conceptual and conceptual coherence in the Zamakhshari in His book entitled "Al_Kashaaf"

The context means that there is an interconnectedness between two things that are similar to one another, ie the connection of the Qur'anic verses to each other to be objectively united, with consistent meanings, regularly structured. The context was recognized by some Arab scholars as a special feature, as books were devoted to such as "The proof in the compatability of the Qur'an" of Granati, and "systems of Aldar in the fitness of the verses and the Suras" of the Beka'i among others. The context organizes types of relationships, such as causation, , Generalization, synonyms and antonyms, details, attention, and digression.

Key words : Context. Coherence. Synonyms . Antonyms . Linguistic context

تعني المناسبة وجود ترابط بين شيئين بينهما مشكلة في وجه من الوجوه، نحو ارتباط أي القرآن بعضها ببعض لتكون وحدة موضوعية متسقة المعاني، منتظمة المباني. وقد حظيت المناسبة عند بعض علماء العربية بمنزلة خاصة، إذ أُفردت فيها كتب نحو (البرهان في تناسب سور القرآن) لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي(ت708هـ) ، و(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لإبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي (ت 885هـ)، و(تناسق الدرر في تناسب السور) لأبي بكر السيوطي(ت911هـ) وغيرهم، وتتنظم المناسبة أنواعا من العلاقات، كالسببية، والحمل على النظر أو الضد، والاجمال والتفصيل، والاتفات، والاستطراد. وقد سعى الزمخشري للكشف عن وجوه الترابط والانسجام بين أجزاء الآية الواحدة أو بين آيات القرآن وسوره، بتحكيم السياق اللغوي

تارة، وبإعمال رؤيته الخاصة وقدرته اللغوية تارة أخرى، مستعملا تراكيب دلت على التناسب بين الآيات من مثل: (فَإِنْ قُلْتَ: ما سر تعلق هذه الآية بما قبلها؟ قلتُ:) و(لما ذكر في الآي قبلها



... قال) و(فإن قلت: كيف اتّصل قوله كذا بما قبله؟ قلتُ) و(وجه اتصال الآية بما قبلها) و(ارتبطت هذه الآية بما قبلها). وبذلك يتبين أن للمناسبة أثرًا كبيرًا في جعل سور القرآن وآياته سلسلة مترابطة ممتدة الحلقات بما يفضي إلى ترابط نص القرآن الكريم ووحدته.

توطئة : المناسبة عند علماء العربية وفي آثارهم

المناسبة في اللغة :

وردت المناسبة في معجمات اللغة بمعنى المشاكلة والملاءمة والمقاربة والاتصال والربط، إذ يقال: فلان يناسب فلانًا، فهو نسيبه، أي قريبه، والنسبة والنسب: القرابة، وناسبه بمعنى شاركه، ويقال للثنتين ليس بينهما مناسبة، أي مشاكلة (1)، وذكر ابن فارس أنّ ((النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء)) (2). وتناسب الشيطان: تشاكلا، أي بينهما مناسبة، وناسب الأمر أو الشيء فلانًا، بمعنى لآمه (3).

يتضح من المعنى اللغوي للمناسبة أنها تعني وجود ترابط بين شيئين في وجه من الوجوه، فقد تكون المناسبة بين اللفظ والمعنى، أو بين اللفظ واللفظ، أو بين المعنى والمعنى، إذ القصد منها جمع الشيء إلى ما يناسبه من نوع أو ما يلائمه من أحد الوجوه.

المناسبة في الاصطلاح:

نقل عن أبي بكر بن عربي (ت543هـ) وصفه المناسبة بالعلم العظيم، قال: ((ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم)) (4). وعرف برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت885هـ) علم المناسبة فقال: ((علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرُّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لمقتضى الحال)) (5). ومعنى ذلك أنّ المناسبة تقتضي ربط أجزاء الكلام ببعضها لانتلاف معانيها وتناسبها، وهو ما يسمّى بالمناسبة المعنوية وهي الأكثر أثرًا في الترابط النصي في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى ((لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)) (الأنعام/103)؛ إذ ابتداء بما لا تدركه الأبصار وانتهى بما يناسبه معنى وهو قوله (اللطيف)؛ لأنّ اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر، وكذا الحال بالنسبة إلى معنى (الخبير) فإنه يناسب من يدرك الأبصار؛ لأنّ من يدرك شيئًا يكن خبيرًا به، فالمناسبة بين الأطراف هنا معنوية لا لفظية (6). ومنه ما قاله ابن رشيق في مدح الأمير تميم :

((أصحّ وأقوى ما سمعناه في النّدى من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث تزويها السيّول عن الحيا عن البحر, عن كفّ الأمير تميم

إذ ناسب فيه بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور والأحاديث والرواية, ثم بين السيل والحيا
والبحر وكفّ تميم)) (7) .

علم المناسبة عند البلاغيين:

استعمل البلاغيون مصطلحات أخر تدلّ على معنى المناسبة نحو: (التناسب، والاتلاف والملاءمة، والتوفيق، ومراعاة النظر) (8) ، يريدون فيها مطابقة الألفاظ لما تؤدّيه المعاني من أغراض. وذكره القزويني في باب المحسنات المعنوية، وهو عنده الجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد، ويسمى التناسب أو الاتلاف أو التوفيق، ومنه ما يسمى بـ (تشابه الأطراف) ومعناه أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى (9)، من ذلك ما رواه الأصمعي حين قرأ قوله تعالى ((وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) (سورة المائدة: 38)، ختمها بـ (والله غفور رحيم) ساهياً. وكان بجانبه أعرابيّ ، فسأله: كلامٌ منّ هذا؟ أجابه الأصمعي : كلامٌ الله. فقال: ليس هذا كلامَ الله. يقول الأصمعي: ولما ختمتُ الآية بقوله تعالى "والله عزيز حكيم" قال الأعرابيّ : "أصبتَ. فقلتُ : أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلتُ: فمنّ أين علّمتُ؟ فقال: يا هذا، عزّ فحكّم فقطع، ولو غفرَ ورحمَ لَمّا قطع!" (10) ، فقد أدرك هذا الأعرابيّ بفطرته السليمة أنّ ختم الكلام بالغفور الرحيم لا يقتضي الحكم بقطع يد السارق، ولهذا قال الزمخشري (ت538هـ) ((إنّ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه)) (11). لذا كان الأولى ختم الكلام بما يناسب أوله؛ فالألفاظ في سياق الآية الواحدة ذات دلالة وإيحاء تدرك بالحسّ اللغويّ والذوق السليم بدراسة أحوالها وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها، ومناسبة مدلول المفردة القرآنية لسياق الآية ونظمها؛ إذ لا يسدُّ غيرها مسدّها في مكانها، وجوّ السورة التي هي فيها بما فيه من وقائع مصاحبة. فالنصّ القرآنيّ وحدة متماسكة متوالية الحلقات تدور في موضوع واحد وكلام متصل، فكل آية في سور القرآن تتصل بسابقتها ولاحتقتها بسبب من المناسبة والترابط المعنويّ، وهو أمر ينسحب على ترابط سور القرآن ووجه اتصالها بما قبلها وما بعدها وما سبقت له؛ لذا قال الإمام الصادق (ع) (ت148هـ): ((إنّ الآية لتنزل أولها في شيء ، وأوسطها في شيء ، وآخرها في شيء ، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه)) (12) .

وتقسم المناسبة عند ابن أبي الإصبع (ت654هـ) على قسمين، أحدهما: المناسبة المعنوية وهي أن يبتدئ المتكلم بمعنى، ثم يتمّ كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، نحو قوله تعالى ((قل رأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون)) (سورة القصص/71)، إذ جاء قوله (أفلا تسمعون) للمناسبة بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للإسماع ولا يصلح للإبصار.

والآخر: المناسبة اللفظية وهي توخي الإتيان بكلمات مترنات وتكون على ضربين : تامة وغير تامة، فالتامة تكون فيها الكلمات مع الاتزان مقفأة، نحو قوله تعالى: ((ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون)) (سورة القلم/2،1)، فناسب بين مقطع الواو والنون بين (يسطرون ومجنون). أما غير التامة فتكون فيها الكلمات غير مقفأة، نحو قوله تعالى: ((ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب)) (سورة ق/1،2)، إذ ناسب بين (المجيد والعجيب) للتقارب في حرفي الدال والباء (13).

وتحدث أبو محمد القاسم السجلماسي (ت704هـ) عن المناسبة فقال: ((والمناسبة في أجزاء القول اسم جنس متوسط تحته أربعة أنواع، الأول: إيراد الملائم، الثاني: إيراد النقيض، الثالث: الانجرار، الرابع: التناسب)) (14). ثم بين كل نوع ممثلًا له، بإيراد الملائم وهو أن يأتي بالشيء وشبيهه نحو الشمس والقمر، وإيراد النقيض وهو أن يأتي بالأضداد نحو الليل والنهار، أما الانجرار فمعناه أن يأتي بالشيء وما يُستعمل فيه نحو القوس والسهم، والنوع الرابع هو التناسب، ويقصد به الإتيان بالأشياء المتناسبة نحو القلب والملك، إذ إنّ نسبة القلب في البدن نسبة الملك في المدينة (15). ويتضح من كلام السجلماسي أن المناسبة كون عام يتفرع منه التناسب والتطابق والتلاؤم والتشاكل...إلخ. وبذلك يتضح أن للمناسبة أهمية كبيرة في تلاحم أجزاء النص وتلابسها وجعلها سلسلة مترابطة ممتدة الحلقات بما يفضي إلى ترابط النص ووحدته.

علم المناسبة عند المفسرين:

حظي علم المناسبة بأهمية كبيرة عند المفسرين وكانت نسبتها من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو لأنه يكشف عن وجوه التناسب والاتئلاف بين الجمل وارتباط آخر الآية بأولها، أو ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها في السورة الواحدة (16). وقد فطن المفسرون لأثر المناسبة في مسألة ترابط النص القرآني وقرروا أنّ أهميتها تكمن في جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، وبصير التأليف محكمًا ومتلائمًا الأجزاء، وقد سعوا للكشف عن وجوه الترابط والانسجام بين أجزاء الآية الواحدة أو بين آيات القرآن وسوره، ومنهم الزمخشري الذي



استعمل تراكيب دلّت على التناسب بين الآيات بأسلوبه المعهود في المناظرة المتخيلة (الفنقلة) (17) من مثل قوله: (فإن قلت: ما سرّ تعلق هذه الآية بما قبلها؟ قلت: ...). و (فإن قلت: ما وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها؟ قلت: ...). و (فإن قلت: "قوله كذا" كيف يتصل بما قبله؟ قلت: ...). و (فإن قلت: بم يتعلق قوله كذا؟ قلت: ...). وقوله كذلك (لما ذكر في الآي قبلها ... قال) ، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: ((أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون)) (سورة الأعراف/185)، يقول الزمخشري: ((فإن قلت: بم يتعلق قوله (فبأي حديث بعده يؤمنون)؟ قلت: بقوله (عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب فمالهم لا يبادرون إلى الإيمان)) (18). ومنه كذلك قول الزمخشري في تبيين ترابط قوله تعالى ((وللاخرة خير لك من الأولى)) (سورة الضحى/4) واتصاله بما قبله من آيات السورة: ((فإن قلت: كيف اتّصل قوله (وللاخرة خير لك من الأولى) بما قبله؟ قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلبي: أن الله مواصلك بالوحي إليك، وأنتك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجلّ منه: أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجلّ، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية)) (19). نستشف من نص الزمخشري المذكور أنفاً أنه استند في ربطه معنى الآية موضع النقاش بما قبلها إلى علاقة التناسب المعنوي المؤدي إلى التثام المعنى والتحام أجزاء النص، وهو ما عبّر عنه بالاتصال .

ومنهم الطبرسي (ت548هـ) في تفسيره (مجمع البيان) إذ وردت فيه بعض العبارات التي تبين تنبّهه للمناسبة بين الآيات القرآنية، نحو: (وجه اتصال كذا بكذا أو بما قبله) و (اتصل قوله كذا بقوله كذا)، وهذه العبارات وغيرها يضعها الطبرسي ضمن فقرة سماها (النظم) تتبع فقرات أخرى كالقراءة، والحجّة، والإعراب والمعنى، ومن ثمّ يختتمها بالنظم الذي يذكر فيه وجه اتصال الآية بما قبلها، ومثال ذلك ما ذكره من ارتباط قوله تعالى: ((النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم)) (سورة الأحزاب/6) بما قبله في السورة نفسها ارتباطاً معنوياً فقال: ((اتصل قوله (النبيّ أولى بالمؤمنين) بقوله (وما جعل ادعاءكم أبناءكم) فإنه سبحانه لما بيّن أن التّبني عليه لا يجوز بيّن عقبيه أنه مع ذلك أولى بالمؤمنين من أنفسهم)) (20).

ومنهم الإمام فخر الدين الرازي (ت606هـ) الذي أولى علم المناسبة في القرآن الكريم عنايته الفائقة وأكثر من تلمس وجوهها فيه، فقد استعمل عبارات دالّة على المناسبة من مثل (اعلم أنّ



تعلق هذه الآية بما قبلها من وجوه (و (بين كذا وكذا مناسبة من جهة كذا)) (21)، ومن اهتمامه بعلم المناسبة قوله في آخر سورة البقرة ((ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته)) (22). ويقول في قوله تعالى: ((وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والافئدة قليلاً ما تشكرون)) (سورة المؤمنون/78): ((العطف لا يحسن إلا مع المجانسة فأبي مناسبة بين قوله (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار) وبين ما قبله؟ الجواب : كأنه سبحانه لما بين مبالغة أولئك الكفار عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل في الحقائق قال للمؤمنين: وهو الذي أعطاكم هذه الأشياء ووقفكم عليها)) (23).

علم المناسبة في تأليف العلماء :

حظيت المناسبة عند بعض العلماء بمنزلة خاصة، إذ أفرد لها غير واحد منهم كتابا كآبي جعفر بن الزبير الغرناطي (ت708هـ) في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن)، وفيه يقول: ((لم أر في هذا الضرب الخاص شيئا لمن تقدم وغير، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح ومجال الكلام فيه أفسح. أما تعلق السور على ما ترتبت في الإمام واتفق عليه الصحابة الأعلام، فما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم)) (24).

واقفتى إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي (ت885هـ) أثر الغرناطي فألف في المناسبة كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وتبعهما أبو بكر السيوطي (ت911هـ) في كتابه المسمى بـ (تناسق الدرر في تناسب السور). ومن العلماء من أفرد للمناسبة بابا أو فصلا في مصنفه من مثل أبي عبد الله، بدر الدين، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي المصري في كتابه (البرهان في علوم القرآن) إذ خصص بالمناسبة فصلا سماه (معرفة المناسبات بين الآيات) (25). وفي هذه المصنفات تكلموا على نشأة المناسبة وأقسامها، وأنواع العلاقات القائمة في التناسب، ووجه مناسبة أوائل السور القرآنية لأواخرها، ومناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقف له، ومناسبة ترتيب الآيات واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها، وبيان فواصل الآي ومناسبتها للآي التي خُتمت بها. (26)

ولم تغب المناسبة عن أنظار الباحثين المحدثين وأفكارهم فقد أُلّف فيها السيد عبد الله بن الصديق الغماري كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، والدكتور محمد أسد سبحاني كتابه (إمعان النظر في نظام الآيات والسور)، والدكتور فاضل صالح السامرائي كتابه (التناسب بين



السور في المفتتح والخواتيم)، والدكتور مصطفى شعبان عبد الحميد كتابه (المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية) (27)، والدكتور مشهور موسى مشهور رسالته (التناسب القرآني عند الإمام البقاعي - دراسة بلاغية)، والدكتور محمد بازمول كتابه (علم المناسبات في السور والآيات)، والدكتور محمد عامر محمد أطروحته (أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني)، والدكتور سامي عطا حسن كتابه (المناسبات بين الآيات والسور: فوائدها وأنواعها وموقف العلماء منها)، والباحثة إقبال نجم رسالتها (التناسب ودوره في الإعجاز القرآني)، والباحثة مقبولة علي مسلم الحصري رسالتها (أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت)، والباحث طارق مصطفى محمد رسالته (التناسب في سورة البقرة)، والباحثة إيمان عبد علي درويش رسالتها (المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها - دراسة تطبيقية لسورة الأعراف)، والباحث أحمد محمد عطية رسالته (المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها - دراسة تطبيقية)، والباحث عبدالله سالم سلامة رسالته (المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها - دراسة تطبيقية على سورة الحجر والنحل والإسراء)، فضلا عن مجموعة من الأبحاث المحملة على شبكة الانترنت (28).

يتضح مما تقدم عظم قدر المناسبة وسعة الاهتمام بها كونها ذات صلة وثيقة بكتاب الله، إذ تكشف عن انسجام النظم القرآني وتناسق عباراته وآياته، فهي وسيلة لبيان وجه الارتباط بين تركيب وآخر في الآية الواحدة، أو بين آخر الآية وأولها أو بين الآية والآية، أو بين السورة والسورة. (29)

أما علماء النص المحدثون فقد أولوا عنايتهم بالمناسبة وعدوها وسيلة من وسائل التماسك النصي، ومنهم الدكتور إبراهيم الفقي الذي قام بدراسة مفصلة لموضوع المناسبة تعرض فيها إلى التعريف بالمناسبة وتتبع نشأتها وذكر أنواعها وفائدتها وأهميتها في تحقيق الترابط النصي (30). وخصّ محمد خطابي جهود علماء العربية في مجال ترابط النص وانسجام الخطاب بدراسة مستفيضة أشار فيها إلى المناسبة والتناسب ضمن وسائل الترابط النصي المفهومي عند بعض المفسرين والمشتغلين بعلم القرآن ومنهم الزمخشري والرازي والطاهر بن عاشور (31).

أثر المناسبة في تحقيق الترابط النصي المفهومي عند الزمخشري في الكشاف

قد ترتبط الآيات بعضها ببعض معنويا ويكون الارتباط حينئذ واضحا جليا لا يُحتاج فيه إلى إنعام نظر؛ لتعلق الكلام ببعضه ببعض وعدم تمامه بالآية الأولى، كأن تكون الثانية للأولى على

جهة التأكيد أو التشديد أو التفسير أو الاعتراض، فالتناسب بين الآيات يعود إلى ((معنى ما رابط بينهما، عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين، والضدين)) (32)، أو قد تكون علاقة التناسب بينها علاقة الاجمال والتفصيل، أو السؤال والجواب (الفنقلة)، أو أن يكون التناسب من باب الالتفات والاستطراد. أو قد يغمض الأمر على محل النص في إدراك المناسبة بين الآية والتي تليها، فيحتاج عندئذ إلى التعمق والتفكير لرصد وجه التناسب بينهما، وفي أحيان أخرى تتعدّد وجوه التناسب بين الآيات، إذ يصلح كل منها للربط المعنوي بينها، فيترك الباحث للقارئ احتمالات متعددة من شأنها أن تشدّد فكره وتدفعه للبحث عن وجوه أخرى للترابط بين الآيات بعد إنعام النظر فيها، الأمر الذي يوسع المعنى، ويزيد النص وضوحاً وانسجاماً، وقد جمع الزمخشري من صور المناسبة ما يؤكد به الوحدة الموضوعية للنصّ القرآني، لاسيما المناسبة العامة بين السور والآيات لتشابهها في بعض الموضوعات. وفي ما يأتي تبيين لأثر المناسبة في تحقيق الترابط النصّي المفهومي عند الزمخشري في الكشاف على وفق المحورين الآتيين:

1- المناسبة الظاهرة: (ظهور علاقة التناسب بين الآيات)

تقدم أن التناسب بين الآيات قد تحكمه علاقات معينة، لعل من أبرزها: علاقة التقابل، وعلاقة البيان والايضاح، وعلاقة التوكيد، وعلاقة الاجمال والتفصيل، وعلاقة التشاكل بأسلوب الاستطراد، تتجلى أمثلتها عند الزمخشري في مواضع متعددة من الكشاف؛ منها ما جاءت المناسبة فيه بعلاقة التقابل، نحو قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ... * وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) (سورة البقرة / 21 - 25). نلاحظ أنّ وجه المناسبة في تحقيق الترابط بين ما تقدم من الآيات قائم على علاقة التقابل بين الضدين، إذ يتجلى فيها أثر المناسبة في تحقيق الترابط النصي بين قوله تعالى (وبشّر الذين آمنوا) وما قبله من الآيات؛ فقد ذكر سبحانه وتعالى ما تؤول إليه حال الكفار في الآخرة ترهيباً لهم وإنذاراً، أعقبه ذكر أحوال مقابلتهم - وهم المؤمنون - وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدي ترغيباً وبشارة؛ لأن من الناس من لا ينفع معه الترغيب في الهداية، فيكون الترهيب والتخويف هو الرادع له، وفي هذا يقول

الزمخشري: ((من عادته عزّ وجلّ في كتابه أن يذكرَ التّرجيبَ مع التّرهيبِ، ويشفعَ البشارةَ بالإندارِ إرادةَ التّشيطِ، لاكتسابِ ما يُزلفُ، والتّشيطِ عن اقتِرافِ ما يُتلفُ)) (33).

ومن أمثلة ما جاءت المناسبة فيه بعلاقة التّقابل كذلك قوله تعالى: ((يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفَنُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)) (سورة التوبة/32)؛ إذ يرى الزمخشري أنّ ما سوغ مجيء أداة الاستثناء (إلا) تاليةً الفعل (يأبى) هو إجراء (يأبى) مجرى (لم يُرد) مستدلاً على ذلك بعلاقة التّقابل بين قوله تعالى (يريدون أن يُطفنوا) وقوله (ويأبى الله)، فضلاً عن وقوعه موقع (ولا يريدُ اللهُ إلا أن يُتِمَّ نورَه)، فقال مستعملاً طريقته المعهودة في التفسير (الفنقلة)، قال: ((فإنّ قُلْتَ: كيف جاز أبى اللهُ إلا كذا، ولا يُقال: كرهتُ أو أبغضتُ إلا زيداً؟ قُلْتُ: قد أُجْرِيَ (أبى) مجرى (لم يُرد)، ألا ترى كيف قوبلَ (يريدون أن يُطفنوا) بقوله (ويأبى اللهُ)، وكيف أوقع موقعَ (ولا يريدُ اللهُ إلا أن يُتِمَّ نورَه))) (34). معلوم أنّ الزمخشري قد استخلص إجراء الفعل (يأبى) مجرى (لم يُرد، أو لا يريد) والمقابلة بينه وبين (يريدون أن يُطفنوا) من سياق الآية ونظمها، ما جعله يقول بتضمين (يأبى) معنى النفي؛ لأن سياق التفرغ يقتضيه وترابط المعنى يستدعيه. ولا يخفى ما للتضمين من قوة في المعنى لانتظامه معنيين في آن واحد، هما معنى اللفظ الأصلي والمعنى المكتسب بالتضمين، فيكون أوفى في التّديل على المعنى السياقي وأكد في الربط المعنوي. (35)

ومن أمثلة ما جاءت المناسبة فيه بعلاقة التّقابل بالتضاد أيضاً قوله تعالى ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ قَرَنَ لَهُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًّا * قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)) (سورة مريم / 73 - 75) ، ففي تفسيره لقوله تعالى (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)، ذهب الزمخشري إلى أنّ الأمر في هذه الآية قد خرج إلى معنى الدعاء بأن يمهل الله وينفس مدة حياته. ورأى في اتصالها بما يجاورها من الآيات وجهين، فقال: ((في هذه الآية وجهان، أحدهما: أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعها، والآيتان اعتراض بينهما، أي قالوا: أيُّ الفريقين خيرٌ مقاما وأحسن ندياً... والثاني: أن تتصل بما يليها. والمعنى: أنّ الذين في الضلالة ممدودٌ لهم في ضلالتهم، والخذلانُ لأصق بهم لعلم الله بهم، وبأنّ الأطفاف لا تنفع فيهم وليسوا من أهلها، والمراد بالضلالة: ما دعاهم من جهلهم وغلّوهم في كفرهم إلى القول الذي قالوه. ولا ينفكون عن ضلالتهم

إلى أن يعاينوا نصره الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة ومقدماتها)) (36). واستعمل الزمخشري مصطلحَ المقابلة للتعبير عن علاقة الترابط بين ألفاظ الآيات المذكورة آنفا، إذ قال إنَّ قوله تعالى ((فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا) في مقابلة (خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)؛ لأنَّ مقامهم هو مكانهم ومسكنهم، والندي: المجلس الجامع لوجوه قومهم وأنصارهم. والجنْدُ هم الأنصار والأعوان)) (37).

يتضح من قول الزمخشري المذكور آنفا أنه جعل قوله: (فسيعلمون من هو شرُّ مكانًا) واقع في مقابلة (خيرٌ مقاما)، وهو تقابل بالضد واضح وجليٌّ؛ لأنَّ الخير ضد الشر. وأنَّ قوله (أضعفُ جنْدًا) واقع في مقابلة (أحسنُ نديًّا)، وهو تقابل بالضد أيضًا؛ لأنَّ الضعفَ تقابله القوة. إنَّ مجيء الآيتين على هذا النحو أوحى بوجود التقابل بينهما، إذ إنَّهم وإنَّ ظنوا في الحال أنَّ منزلتهم أفضل من حيث فضلهم الله تعالى بالمقام والندي، أي بظهور شوكتهم وقوتهم باجتماعهم؛ فسيعلمون لاحقًا أن الأمر بالضد من ذلك، وأنهم شرُّ مكانًا وأضعف جنْدًا. وبذلك يتضح أثر علاقة التقابل بالضد التي رصدها الزمخشري في ترابط النص القرآني سواء كان التقابل فيها لفظيا أم معنويا، وهو أمرٌ كفيلاً بإبراز جهده في الكشف عن بلاغة القرآن الكريم وترابط نصوصه .

نخلص من هذا إلى أن التناسب المعنوي بين الآيات المذكورة آنفا تحكمه علاقة التقابل، إذ إنَّ ذكر الضدِّ يُحيلُ القارئ إلى البحث عن مقابله، وهو أمرٌ مألوفٌ في أسلوب المقابلة، وعادةً مألوفةٌ في السياق القرآني، رصدها المفسرون ونَبَّهوا عليها وزادها الزمخشري بسطةً يجعلها وجهًا من وجوه التناسب المعنوي بين الآيات والسور بما يؤدي إلى ترابط النص القرآني ويؤكد النظرة الكلية للقرآن الكريم كنص واحد.

ومن صور التناسب التي لها أثر في ترابط المعنى كذلك التناسب بأسلوب الاستطراد الذي هو أحد المحسنات المعنوية التي ينتظمها علمُ البديع، ومعنى الاستطراد هو: ((أن يأخذَ المتكلمُ في معنى، فبينما يَمُرُّ فيه يأخذُ في معنى آخر؛ وقد جعلَ الأولَ سببًا إليه)) (38)، أي الانتقال من معنى إلى آخر بينهما مناسبة ثم يعود ثانيا إلى ما كان عليه؛ إذ إنَّ من سمت العرب في كلامها أن تتكلم في شيء ثم تنتقل من ذلك إلى شيء آخر له به مناسبة وتعلق ثم ترجعُ إلى ذلك الأول، من ذلك ما ساقه الزمخشري في تفسير قوله تعالى ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) (سورة البقرة: 189)، إذ يتوزع هذه الآية موضوعان، أحدهما: حديث عن الأهله والحكمة منها. والآخر: حديث عن البرِّ، وعلى الرغم من بُعد ما بين الموضوعين فقد



عُطفا بالواو مما يفرض السؤال عن وجه التناسب بينهما، وفي ذلك أجاب الزمخشري: ((كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة من نقصانها وتامامها: معلوم أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصالحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم بما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً. ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج لأنه من أفعالهم في الحج، ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم وأن مثلهم فيه كمن يترك باب البيت ويدخله من ظهره ... ثم قال (وائتوا البيوت من أبوابها) أي: وباشروا الأمور من وجوها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا)) (39). ويعلق محمد خطابي على رأي الزمخشري قائلاً: ((قبل هذا روى الزمخشري سببين مختلفين لنزول الآية يرتبط أولهما بسؤال لمعاذ بن جبل وثعلبة بن غنم عن حال الهلال المتغيرة، والثاني متعلق بممارسة ناس من الأنصار في أثناء الحج. وهما معاً سببان واردان، وهذا هو الإجراء الأول. الإجراء الثاني الذي يلجأ إليه الزمخشري هو ما ورد في النص المستشهد به، والملاحظ في صيغة: الجواز والاحتمال أن في هذه الآية إشكالاً، فالجواز يبرره بالاستطراد الذي انجر إليه الكلام. والاحتمال يبرره بالتمثيل لحالهم، وهذا هو الأقرب في اعتقادنا لكي تتسجم الآية مع ما سبقها وما يلحقها)) (40).

ومما جاء محاكيا سمت العرب في التناسب بأسلوب الاستطراد كذلك قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ((وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَلَوِ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْأَ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا * فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا)) (سورة النساء / 83 - 84)؛ إذ تكلم على وجه المناسبة بين الآية ((فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً)) وما قبلها من الآيات، فقال: ((لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال، وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال: "فقاتل في سبيل الله" إن أفرودك وتركوك وحدك " لا تكلف إلا نفسك" غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد، فإن الله هو ناصرك لا الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك ومن حولك الألو)) (41). نلاحظ أن الزمخشري قد ربط بين هذه الآية وما قبلها من الآيات معتمداً أسلوب الاستطراد ذاهباً إلى أن الموت يدرك الكائنات الحية جميعاً لا يفلت أحد منه؛ فلا فائدة في الهرب من القتال، وأتبع ذلك بما أتبع من سوء خطاب المنافقين للرسول (ص)، وفعلهم معه من إظهار الطاعة بالقول، وخلافها بالفعل، وبكتهم في عدم تأملهم ما جاء به الرسول من القرآن الذي فيه كُتب عليهم القتال، ثم عاد

إلى أمر القتال ، فقد ورد هذا المعنى - القتال - في الآيات (74 - 77) من سورة النساء، ثم عاد إلى أمر القتال في الآية المذكورة آنفا.

يتضح من كلام الزمخشري وجه المناسبة المعنوية بين الآية المذكورة وما قبلها، وإن لم يصرّح به، إذ ناسب مجيء الأمر بالقتال في (فقاتل..) لما تقدم من ذكر القتال و التحريض عليه. وبذلك يتبين وجه الترابط المعنوي في النص القرآني وتنتضح نقاط الانسجام بين آياته.

2- المناسبة الخفية: (خفاء علاقة التناسب بين الآيات)

ثمة وجه للتناسب بين الآيات يحتاج إلى سبر غور وشرح وتوضيح لخفاء العلاقة بينها وعدم ظهورها، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ((بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ * لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ)) (سورة القيامة 14 - 21)، فقد ورد في النص القرآني قوله تعالى: ((لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)) وقد سبق بقوله: ((بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ))، وأُتبع بقوله: ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ))، وفيه ما يُشكل على القارئ في معرفة وجه المناسبة بين الآيات؛ إذ لا علاقة ظاهرة بينها. يرى الزمخشري أنّ المناسبة في اتصال قوله تعالى "لا تحرك به لسانك" بما قبله وما بعده من الآيات التي تصف أحوال يوم القيامة تكمن في باب التخلص، ويُرادُ بالتخلص الخروج مما ابْتَدَى به الكلام إلى المقصود مما افتتح به الكلام مع رعاية المناسبة بينهما، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع الثاني لشدة الالتئام بينهما (42)، فيكون مراد الزمخشري التخلص من ذكر أحوال يوم القيامة إلى التوبيخ بحب العاجلة، وترك الآخرة، وهو تلمس لعلاقة مناسبة غير ظاهرة بطريقته المعهودة في المناظرة المتخيلة (المنقلة)، قال: ((فإن قلت: كيف اتصل قوله: "لا تحرك به لسانك" إلى آخره بذكر القيامة؟ قلت: اتصاله به من جهة هذا، للتخلص منه، إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة)). (43).

ومما كانت علاقة التناسب فيه خافية فأفصح عنها الزمخشري بقوله إن الإضافة تقع لأدنى ملابسة قوله تعالى ((وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)) (سورة يوسف/42)؛ إذ يقول: ((فإن قلت: ماوجه إضافة الذكر إلى ربّه إذا أريد به الملك؟ وما هي بإضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قلت: قد لايسه في قولك: فأنساه الشيطان ذكر ربّه، أو عند ربّه، فجازت إضافته إليه؛ لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة. أو على تقدير: فأنساه الشيطان ذكر إخبار ربّه، فحذف المضاف الذي هو

الإخبار)) (44). يرى ابن قتيبة (ت276هـ) أن الملابس تعني ((أن يتصل الكلام بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد، وهو قولان)) (45). ويتطبيق هذا المعنى على قول الزمخشري يتبين لنا أن الترابط والتعلق والاتصال بين أجزاء الآية موضوع البحث قد تحقق بإضافة المصدر إلى غير معموله (الفاعل أو المفعول)، وهذا ما دفع الزمخشري إلى ترجيح أن الذي أنساه الشيطان ذكر (يوسف) عند ربه (الملك) هو السّاقى وليس يوسف (ع)، وهو من قبيل إضافة المصدر إلى غير معموله مسوغا تلك الإضافة أن المقام يقتضيها، والدلالة تستدعيها، وأن الملابس متحققة فيها؛ لأن السّاقى كان ذا حظوة عند ربه (الملك) قريبا منه مكانة ومكانا، فجازت إضافة أحدهما إلى الآخر؛ لأن الإضافة تقع لأدنى ملابس، قال ابن يعيش ((الإضافة تصح بأدنى ملابس)) (46). على أن الزمخشري لم تفته الإشارة إلى الوجه الآخر لهذه الإضافة، إذ عدّها من قبيل الإضافة إلى المفعول الصريح الذي حُذِفَ من الكلام على تقدير: (فأنساه الشيطان ذكر إخبار ربه) وهو ماعده الزمخشري وجهًا مرجوحًا.

وفي قوله تعالى: ((الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا)) (سورة النساء/34)، أشار الزمخشري تلميحا إلى وقوع التناسب بين ما ختمت به الآية وهو قوله (إن الله كان عليًا كبيرًا) ومضمون ما سبقها لتذكير الرجال بحسن معاملة النساء وتنبههم على عدم التعالي والتكبر عليهن؛ لأن المتصف بعلو الشأن وكبرياء السلطان حقيقة هو الله تعالى ((فاحذروه واعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم)) (47)، وتابعه عدد من المفسرين في التدليل على ملاءمة خاتمة الآية لمضمون ما سبقها، منهم الرازي، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والطاهر بن عاشور (48)، ويتضح من أقوالهم تعلق ما ختمت به الآية بما تضمنته من معنى المناسبة، فالجملة وإن كانت مستقلة لفظيا إلا أنها ترتبط بما قبلها ارتباطا معنويا بينته آراء المفسرين، فقدره الرجال على النساء وعلوهم عليهن أمرٌ ينبغي له أن يخضع لضوابط الشرع، وأن يتصف بخفض الجناح وليونة الجانب؛ لأن الكبير المتعالي حقيقة، والقادر على كل شيء هو الله جلّ وعلا .

نخلص مما تقدم إلى أن الكشف عن أثر المناسبة في تحقيق الترابط النصي بين الآية ونظائرها في اللفظ والمعنى - ولاسيما ما خفيت علاقة مناسبته منها- يكون مرتبطا بسعة علم



المفسّر ومقدار ثقافته اللغوية والنحوية ومعرفته أساليب العرب في كلامهم وفنونهم الأدبية والبلاغية

إنّ ما قدّمه الزمخشريّ من تفسير استحضر فيه وسائل الربط المفهومي ومنها المناسبة، أسهم في تأصيل نظرية الترابط النصي، وأكّد -بجلاء- حقيقة معرفة علماء العربية القدماء بالوسائل التي تسهم في ترابط الكلام والتتام معناه؛ إذ أولى الزمخشريّ عناية كبيرة لموضوع المناسبة في القرآن الكريم تجاوزت مفهوم مراعاة النظير في التناسب بين الألفاظ في الآية الواحدة أو الآيتين، إلى التناسب المعنوي بين الآيات والسور .

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة العلمية الماتعة في تبيين ماهية المناسبة ورصد أثرها في تحقيق الترابط النصي المفهومي عند الزمخشري في الكشاف لابد من الإفصاح عمّا آلت إليه تلك الرحلة من فوائد:

* حظيت المناسبة بأهمية كبيرة ومنزلة خاصة عند علماء العربية-قدماء ومحدثين- لاسيما علماء اللغة والبلاغة والتفسير لارتباطها بالكشف عن وجوه التناسب والاتلاف والتوافق والاتصال بين شيئين بينهما مشكلة في وجه من الوجوه، نحو ارتباط أي القرآن بعضها ببعض لتكون وحدة موضوعية متسقة المعاني، منتظمة المباني. وقد أفردت فيها-لأهميتها-كتب نحو (البرهان في تناسب سور القرآن) لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي(ت708هـ)، و(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لإبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي (ت 885هـ)، و(تناسق الدرر في تناسب السور) لأبي بكر السيوطي(ت911هـ)، فضلا عن فصول ومباحث في كتب أخرى.

* تعد المناسبة بعلاقاتها المتعددة من وسائل الترابط المفهومي الكثيرة الدوران في كشاف الزمخشري، لاسيما ما تفرّد به من أسلوب المناظرة المتخيّلة (الفنقلة) نحو قوله في التفسير: (فإن قلنت:....؟ قلنت)، إذ حاول الزمخشري البحث عن أسباب ارتباط الآيات والسور بعضها ببعض معنويا، بناء على معطيات السياق اللغوي، والسياق الخارجي المتمثل بأسباب النزول، فيظهر الترابط المعنوي بين أجزاء النص القرآني الذي تحكّمه علاقات دلالية متعددة، منها: البيان والتفسير، والإجمال والتفصيل، إذ يكون في الكلام الأول شيء من الغموض أو الإجمال، فيردف بآخر ليُزيل إبهامه ويفصّل مجمله ويتمّ معناه، ويؤكد الوحدة الموضوعية للنصّ القرآني. وبذلك يتضح أن للمناسبة أهمية كبيرة في تحقيق الترابط النصي المفهومي بجعل سور القرآن الكريم وآياته سلسلة مترابطة ممتدة الحلقات أخذ بعضها برباق بعض بما يجلي تماسك النصّ القرآني ووحدته.



* استعمل الزمخشري لتبيين أثر المناسبة في ترابط المعنى مصطلحاتٍ تدلّ معانيها على الاتصال والتقارب والتعلق والتناسب، من نحو قوله : (فَإِنْ قُلْتَ: ما سر تعلق هذه الآية بما قبلها؟ قلتُ:). و (فإن قلتُ: ما وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها؟ قلتُ:). و (ارتبطت هذه الآية بما قبلها). و (فإن قلتُ: " وهم بالآخرة هم يوقنون" كيف يتصل بما قبله؟ قلتُ...). و (وجه اتصال الآية بما قبلها). وبهذه العبارات تتضح الجهود التي قدمها الزمخشري في مجال المناسبة في القرآن الكريم، وتتبعه لمسألة ارتباط الآي والسور، وجعلها دليلا على ترابط النص القرآني والتتام المعنى فيه، إذ لم يكتفِ بالبحث عن الانسجام داخل الآية الواحدة بل تعداه إلى التناسب بين الآيتين وبين مطلع السورة وخاتمتها، وبين السورة وسابقتها أو لاحقتها، محكّما السياق اللغوي تارة ، ورؤيته الخاصة وقدرته اللغوية تارة أخرى .

* كشف البحث عن أنّ علاقة التناسب بين الآيات من منظور الزمخشري انتظمها نوعان من العلاقات؛ أحدهما: المناسبة ذات العلاقة الظاهرة، ويكون فيها الترابط المعنوي على طرف الثمام واضحا جليا لا يُحتاج فيه إلى إنعام نظر؛ لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالآية الأولى، كأن تكون الثانية للأولى على جهة التأكيد أو التشديد أو التفسير أو الاعتراض. والآخر: المناسبة ذات العلاقة الخفية، ويكون فيها الترابط المعنوي بين الآيات خفياً به حاجة إلى سبر غور وعمق تفكير لرصد وجه التناسب بينهما، الأمر الذي يوسع المعنى، ويزيد النص وضوحاً وانسجاماً .

Abstract

The Context and its impact on the realization of the conceptual and conceptual "coherence in the Zamakhshari in His book entitled "Al_Kashaaf

Prof.Dr. Sadoon Ahmed Ali / University of Babylon / Iraq

The context means that there is an interconnectedness between two things that are similar to one another, ie the connection of the Qur'anic verses to each other to be objectively united, with consistent meanings, regularly structured. The context was recognized by some Arab scholars as a special feature, as books were devoted to such as "The proof in the compatability of the Qur'an" of Granati, and "systems of Aldar in the fitness of the verses and the Suras" of the Beka'i among others. The context organizes types of relationships, such as causation, , Generalization, synonyms and antonyms, details, attention, and digression.

Al-Zamakhshari sought to uncover the interconnectedness and harmony between the parts of the single verse or between the verses of the Qur'an and the Qur'an, by arbitrarily interpreting the linguistic context, and by implementing his own vision and linguistic ability, using combinations that showed the proportionality of verses such as: "When mentioned in the previous Verse.. He said" and " If you said: How to connect what is said here with what is said before?". Thus, it is clear that the context has a great



impact in making the Qur'an wall and its verses an interconnected series that leads to the interconnection of the text and unity of the Holy Quran.

Key Words : context . Means .Generalization, Synonyms . Antonyms, Digression. Al-Zamakhshari . Interconnectedness

هوامش البحث :

- ¹ ينظر : الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية ، اسماعيل بن حماد الجوهري ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1990: 2 / 245 (نسب) .
- ² معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس ،تح: محمد عبد السلام هارون، دار الفكر 1399هـ، 1979م : 5 / 4235 (نسب).
- ³ ينظر : المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون : 916 (نسب).
- ⁴ البرهان في علوم القرآن ، للزركشي: 1/132، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: 2/976 .
- ⁵ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : 5/1
- ⁶ ينظر: بديع القرآن ، ابن أبي الإصبع : 145 ، والكليات ، للكفوي: 866 .
- ⁷ علم البديع ، الدكتور عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: 180 .
- ⁸ ينظر : مفتاح العلوم : 1 / 424 ،والطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، ليحيى العلوي اليمني: 566 ، وخزانة الأدب : 1 / 293 .
- ⁹ ينظر : الايضاح : 488 . 490 ، وخزانة الأدب : 1 / 225 .
- ¹⁰ ينظر: الكشكول ، لبهاء العاملي 3 / 447 .
- ¹¹ الكشاف : 1/253 .
- ¹² كتاب التفسير ، للعايشي : 1/11 .
- ¹³ ينظر : تحرير التحرير : 124 . 126 ، وبديع القرآن : 145 . 150 .
- ¹⁴ المنزح البديع : 518 .
- ¹⁵ ينظر : المنزح البديع: 518 ، 519 .
- ¹⁶ ينظر نظم الدرر ، البقاعي : 1 / 5 ، 6 .
- ¹⁷ (الفنقلة) كلمة منحوتة من قول الزمخشري: (فإن قلت: "قوله كذا" كيف يتصل بما قبله؟ قلتُ...)، وهذا ما يسميه المحدثون بالمناظرة المتخيلة ، ينظر كتابنا: لغة القرآن بين الفراء والزجاج والزمخشري: 148.
- ¹⁸ الكشاف : 2 / 182 .
- ¹⁹ الكشاف: 4/766 .



- ²⁰ مجمع البيان : 8 / 96 .
- ²¹ ينظر على سبيل التمثيل : مفاتيح الغيب : 2 / 353 ، 3 / 513 ، 7 / 106 ، 154 ، 178 ، 11 / 240-241 ، 275 ، 17 / 132 ، 26 / 221 ، 23 / 289 ، 28 / 231 ، 30 / 726 .
- ²² مفاتيح الغيب: 7/ 178 .
- ²³ مفاتيح الغيب : 23 / 289 .
- ²⁴ البرهان في تناسب سور القرآن: 77 .
- ²⁵ ينظر : تناسق الدرر في تناسب السور : 54 .
- ²⁶ ينظر : مباحث في علوم القرآن : 97 ، وأثر المناسبة في كشف إعجاز القرآن، د.نور الدين عثر (بحث):62، و التناسب في القرآن الكريم سورة الطارق أنموذجا، د.حذيفة عبود مهدي(بحث)427-431.
- ²⁷ ينظر: المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية، د. مصطفى شعبان: 37 .
- ²⁸ ينظر : المناسبة في القرآن الكريم، محمود حسن عمر: 3-5 .
- ²⁹ ينظر : البرهان في علوم القرآن: 1/ 35 .
- ³⁰ ينظر : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : 2/ 87 وما بعدها .
- ³¹ ينظر : لسانيات الخطاب : 189 . 193 .
- ³² البرهان، للزركشي: 1/ 62 .
- ³³ الكشاف: 1/ 104 .
- ³⁴ الكشاف: 2/ 253 .
- ³⁵ ينظر:الخصائص: 2 / 510، والبرهان للزركشي:3/211.
- ³⁶ الكشاف : 3 / 37 .
- ³⁷ الكشاف: 3/ 38 .
- ³⁸ كتاب الصناعتين، للعسكري: 364 .
- ³⁹ الكشاف: 1/ 341 .
- ⁴⁰ لسانيات النص: 190 - 191 .
- ⁴¹ الكشاف : 1/ 542 .
- ⁴² ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: 1/ 399.
- ⁴³ الكشاف: 4/ 661-662 .
- ⁴⁴ الكشاف 2 / 445 .
- ⁴⁵ تأويل مشكل القرآن: 180
- ⁴⁶ شرح المفصل: 3/ 16 .
- ⁴⁷ الكشاف: 1 / 507 .
- ⁴⁸ ينظر: مفاتيح الغيب : 10/ 73 ، والجامع لأحكام القرآن : 5/ 173 ، وأنوار التنزيل: 2/ 73 ، والبحر المحيط: 253/3 ، وفتح القدير : 1/ 532 ، والتحرير والتنوير : 5/ 42 .

المصادر والمراجع :

- * الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت911هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1974م .
- * أثر المناسبة في كشف إعجاز القرآن، د.نور الدين عثر (بحث)، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، ع13، 1996م .
- * أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي (ت685هـ)، دار الكتب العلمية، ط5، بيروت، 2011م .
- * الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني (ت739هـ) ط1 1985 دار الكتب العلمية، بيروت .
- * البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (745 هـ) ، دراسة وتحقيق وتعليق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، شارك في تحقيقه : د.زكريا عبد المجيد النتنوني، د.أحمد النجوني الجمل ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط1، 1993هـ .
- * بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ)، تح: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة.
- * البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير النقي (ت708هـ) ، تح : سعيد بن جمعة الفلاح، ط1، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية، 1428هـ .
- * البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (794هـ)، خرّج حديثه وقدم له وعلّق عليه مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 1426هـ - 2005م .
- * تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان .
- * تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تح: حفني محمد شرف، ط1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- * التحرير والتتوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت1393هـ)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 1984م .
- * التناسب في القرآن الكريم سورة الطارق أنموذجاً، د. حذيفة عبود مهدي السامرائي (بحث)، مجلة كلية العلوم الإسلامية/الرمادي، عدد خاص بالمؤتمر العلمي الثاني، 2012م .
- * تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي، تح: عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406هـ - 1986م .
- * الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت671هـ)، تح: د.عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان، ط1 ، 2006م .
- * الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1990م .
- * شرح المفصل، يعيش بن علي بن يعيش الأسدي (ت643هـ)، تح: أحمد السيد أحمد، وإسماعيل عبد الجواد عبد الغني، المكتبة التوفيقية، مصر .



- * الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري(ت393هـ) ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1990 م .
- * الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للسيد الإمام يحيى بن حمزة العلوي(ت749هـ)، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان 1415هـ - 1995م .
- * علم البديع، الدكتور عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: 180.
- * علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، ط1، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2009م .
- * فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني(ت1250هـ)، دار الكلم الطيب، بيروت، 1404 هـ .
- * كتاب التفسير ، لأبي النضر محمد بن مسعود العياشي(ت320هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان
- * كتاب الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري(ت395هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 المكتبة العصرية، لبنان2006م.
- * كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم; المؤلف: محمد علي التهانوي; المحقق: رفيق العجم، وعلي دحروج، ط1، مكتبة لبنان للنشر، 1996م .
- * الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت 538 هـ) صححه وضبطه وحقق حواشيه مصطفى أحمد حسين ط ، دار الكتاب العربي 1947م .
- * الكشكول، لبهاء بن محمد العاملي (ت1031هـ)، العراق ، ط1 النجف الأشرف 1393 هـ .
- * الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أيوب بن موسى الكفوي (ت1094هـ)، تح: عدنان درويش، محمد المصري، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م .
- * لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء، نعمان بو قرّة، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت 2012م .
- * لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991م .
- * لغة القرآن بين الفراء والزجاج والزمخشري، ط1 ، سلسلة الدراسات والبحوث الإسلامية، ديوان الوقف السني، بغداد، 2014م .
- * مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (ت 1420هـ) الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3 ، 1421هـ- 2000م .
- * مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي(ت548هـ)، ط1، دار العلوم للتحقيق والطباعة، بيروت، 2005م.
- * معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت 207 م) ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ، عالم الكتب ط3، 1983م .
- * معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس(ت395هـ)، تح: محمد عبد السلام هارون، دار الفكر 1399هـ، 1979م .
- * المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت .



- * مفاتيح الغيب (التفسير الكبير), فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت 606 هـ), دار الفكر , بيروت - لبنان , ط1 , 1981 م
- * مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت626هـ)، تحقيق: د. عبدالحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1420 هـ - 2000 م .
- * المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية، د. مصطفى شعبان عبد الحميد، ط1 المكتب الجامعي الحديث، 2007 م .
- * المناسبة في القرآن الكريم، محمود حسن عمر، بحث على شبكة الأنترنت - موقع الألوكة .
- * المنزغ البديع في تجنيس أساليب البديع، لأبي محمد القاسم السجلماسي (ت704هـ)، تحقيق علال الغازي، ط1، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب 1401هـ-1980م .
- * نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي (ت885هـ)، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415 هـ .
- * النكت في إعجاز القرآن، للرماني ، مطبوع ضمن كتاب : ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد و د. محمد زغلول سلام ، ط3 دار المعارف ، مصر .